٧- فصل

وهذا سبب قتل البرامكة وماوقع لهم مع الرشيد[١]

[٩٠] والقصة فى ذلك على مارواه إبراهيم بن إسحاق عن أبى ثور زاهر بن صقلاب ، قال : بلغنى أنه كان لهارون الرشيد مجلس بالليل مع جعفر البرمكى ، فقال له يوما : لا يطيب لى ذلك إلا بمحضر أختى ميمونة، ولكن لا يجوز إلا إن كتبت لك عليها لإباحة النظر من غير أن تقربها ، فاتفقا على ذلك ، وعقد له عليها ، ثم أحضرها فكانت تحضر لذلك المجلس إلا أنه زاد غرامها وعشقها فيه ، وكان لجعفر البرمكى امرأة تزين له الجوارى كل ليلة ، فجاءت ميمونة لها وأرشتها بمال فزينتها له ، وأدخلتها عليه ، فظن أنها جارية فواقعها ؛ فلما أصبحوا ، قالت له : أنا ميمونة وقد كنت أسألك أن تساعدنى على مودتك فتأبى ؛ فلما أيست منك احتلت عليك بما رأيت فى هذه الليلة ، وإن لم تواظب لأكونن سببا فى سلب نعمتك ، وهل أنت إلا زوجى .

فقال لها جعفر : ويحك أهلكتينى وأهلكت نفسك وكان كما قال ، ولم يزورها حتى ظهر أمرها للرشيد . فهذا كان سبب قتل البرامكة ، وهذا ابتداء الحديث.

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٠/١٨٩-١٩٤) ، تاريخ بغداد (٧/١٥٢) ، تاريخ الطبرى حوادث سنة [١٨٧هـ] ، مقدمة ابن خلدون ص٢٢ .

[٩١] قال المبرد : قال أبو عبد الله المارستانى ، عن يحيى بن أكثم القاضى[1] ، قال : سألت إسماعيل بن يحيى الهاشمى ، عن سبب زوال نعمة البرامكة ؟ قال : نعم أعرف صحة الخبر وباطن القصة ، كان سبب ذلك : أنى كنت مع الرشيد يوما من الأيام راكبا إلى الصيد فبينما نحن نسير ، إذ نظر إلى موكب بالبعد اعترضنا ، فقال لى: يا إسماعيل لمن هذا؟ فقلت : هو لأخيك جعفر بن يحيى ، فالتفت يمينا وشمالا إلى من معه فى موكبه ، فإذا هو شرذمة يسيرة ، ثم نظر إلى الموكب الذى فيه جعفر فلم يره، فقال : يا إسماعيل مافعل جعفر وموكبه ؟ فقلت : ياسيدى قد مضى أخوك فى طريق ولم يعلم بموضعك ، فقال : ما رأنا أهلا أن يزيننا بموكبه ويحملنا بجيشه؟ فقلت : العفو يا أمير المؤمنين لو علم بمكانك ماتعداك ، وماسار إلا بين يديك واعتذرت بما حضر لى من الكلام .

ثم سرنا حتى انتهينا إلى ضيعة عامرة ، ومواش كثيرة ، وعمارة حسنة، وكان الطريق يدور عليها ، فدرنا حتى وردنا باب القرية ، فنظر

---

(١) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمى الأسدى : قاض ، رفيع القدر ، عالى الشهرة، يتصل نسبه بأكثم بن صيفى حكيم العرب ، اتصل بالمأمون أيام مقامه بها ، فولاه قضاء البصرة [٢٠٢هـ] ثم قضاء القضاة ببغداد ، وأضاف إليه تدبير الخلافة ، فكان وزراء الدولة لايقدمون ولايؤخرون فى شىء إلا بعد عرضه عليه . وله غزوات وغارات منها أن المأمون وجهه [٢١٦هـ] إلى بعض جهات الروم فعاد ظافراً ، وكان يُتهم بأمور شاعت عنه ، وتناقلها الناس ولكن ذلك من حسد الناس له ، وكفى بابن حنبل لما ذُكر ذلك أمامة ، قال : سبحان الله سبحان الله ، ومن يقول هذا ؟! وأنكر ذلك إنكارا شديداً ، وقال فيه : ماعرفت فيه بدعة ، ت[٢٤٢هـ = ٨٥٧م] . انظر : طبقات الحنابلة (٤١٠/١) ، وفيات الأعيان (٢١٧/٢) .

الرشيد إلى البيدر[1]، وإلى كثرة الغلال فيه ، والمواشى ، ويسار أهلها . فالتفت إلى وقال : يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ قلت : لأخيك جعفر بن يحيى ، فسكت ثم تنفس الصعداء ، ثم سرنا ولم يزل يمر بكل ضيعة أعمر من الأخرى ، وكلما مر وسألنى عن ضيعة ، قلت: لجعفر بن يحيى ، حتى سرنا ووصلنا إلى المدنية ؛ فلما أردت وداعه والانصراف إلى منزله نظر إلى من كان حواليه نظرة فعلموا ما أراد فتفرقوا ، وبقيت أنا وهو ، فقال : يا إسماعيل ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، فقال : انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم ، فقلت فى نفسى : بلية والله ، ثم قلت : لماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : نظرت لهؤلاء وغفلت عن هؤلاء لأنى لا أعرف لأحد من أولادى ضيعة من ضياع البرامكة على طريق واحد على قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم غير ذلك على هذا الطريق فى سائر البلدان ، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وكل ما يملكون لك ، فنظر إلى نظرة جبار عنيد ، ثم قال : ما عد البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وأنهم هم الدولة ، وأن لانعمة لبنى العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها ، فقلت : أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمه ومواليه ، فقال: والله يا إسماعيل إنك لتعلم أنى قلت هذا وكأنى أراك أن تعلمهم بكلامى فتتخذ لك عندهم يدا وإنى آمرك أن تكتم هذا الأمر ، فإنه ما علم به أحد غيرك ، ومتى بلغهم شىء مما جرى ، علمت أنه ما أفشاه إلا أنت ، فقلت : يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أن يكون مثلى يفشى سرك .

---

(١) البيدر : الموضع الذى يجمع فيه الحصيد .

قال : وكان هذا القول أول ماظهر من أمر البرامكة ؛ ثم ودعته وانصرفت متفكرا فى إيقاع الحيلة عليهم .

فلما كان من الغد بكرت إليه وجلست بين يدية ، وكان فى محل يشرف على الدجلة من شرقى مدينة باب السلام ، وبإزائه منزل جعفر من الجانب الغربى ، وكانت المواكب من جميع الأصناف من قائد وأمير وعامل يردون فى كل يوم إلى قصر جعفر ، فالتفت إلىَّ وقال : يا إسماعيل هذا ماكنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب ، وأنا ماعلى باب دارى أحد ، فقلت : يا أميرالمؤمنين ناشدتك الله أن لاتعلق نفسك بشىء من هذا ، وإن جعفرا إنما هو عبدك، وخادمك، ووزيرك ، وصاحب جيوشك ، إذا لم يكن الجيش على بابه فعلى باب من يكون ، إنما بابه من أبوابك ، فقال : يا إسماعيل انظر إلى دوابهم ألست ترى إعجازهم إلى قصرى وتروث بإزائنا ، ونحن ننظر إليها والله هذا هو الاستخفاف بعينه، والله لا أصبر على ذلك ، ثم غضب غضبا شديدا وامتلأ غيظا فأمسكت عن الكلام ، وقلت : والله هذا قضاء من الله سابق وحكم لا محالة واقع ، ثم استأذنته فى الانصراف ورجعت إلى منزلى؛ فلقينى جعفر فى الطريق يريد الرشيد ، فتواريت عنه حتى مضى ، فدخل إليه وسلم عليه فأجلسه عن يمينه وأكرمه غاية الإكرام ، وبش فى وجهه وحادثه ساعة ووهب له خادما من خاصة خدمه ، وأنبلهم وأوضحهم وجها ، وأكملهم ظرفا ، كاتبا حاسبا لبيبا ؛ فسر جعفر سرورا كاملا ، ووقع فى قلبه أجل موقع ، وكان دسيسا عليه وبلية لديه ، يرفع أخباره إلى الرشيد ويحصى عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتا بوقت ، فخلا به جعفر يومه ذلك وليلته واحتجب من أجله عن الناس .

فلما كان بعد ثلاثة أيام سرت إلى جعفر فسلمت عليه ، فلما خلا مجلسه ولم يبق عنده غيرى وذلك الخادم واقف ، وعلمت أن الخادم يحصى علينا أخبارنا ؛ فقلت : أيها الوزير نصيحة أفتأذن لى فى الكلام ، قال : تكلم وكان الرشيد ولاه كورة خراسان كلها وما يضاف وينسب لها قبل هذا الكلام بأيام ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان ، وضرب الناس مضاربهم بها وهم متأهبون للسفر ؛ فقلت : يا سيدى أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده ، فلما قلت ذلك نظر إلى مغضبا ، وقال : والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك ؛ أو قال صاحبك إلابفضلى ، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا ، أما كفى أنى تركته لايهتم بأمر شيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ، ولازالت للأمور الجليلة أدبرها ، حتى يمد عينه إلى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى من بعدى ، وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ، والله لئن سألنى شيئاً من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعا ، فقلت: والله ياسيدى ماكان مما ظننت شيء ولاتكلم أمير المؤمنين بحرف ، قال : فما هذا الفضول منك ، فقعدت بعدها هنيهة ثم ، قمت إلى منزلى ولم أركب إليه ولا إلى الرشيد لأنى صرت بينهما فى حال تهمة ، وقلت فى نفسى : هذا الخليفة وهذا وزيره ، وأى شيء لى بالدخول بينهما ، ولاشك فى زوال نعمة البرامكة وإن أمورهم قد انثلمت[1].

---

(١) انثلمت : اختلت .

قال : وحدثنى خادم أم جعفر أن الخادم الـذى وهبه الرشيد لجعفر كتب إلى الرشيد بما كان بينى وبينه وما تكلم به من الكلام الغليظ . قال : فلما قرأ الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثه أيام متفكرا فى إيقاع الحيلة على البرامكة ، فدخل فى اليوم الرابع على زبيدة فخلا بها وشكا لها ما فى قلبه وأطلعها على الكتاب الذى رفعه إليه الخادم ، وكان بين جعفر وزبيدة شر وعداوة قديمة ؛ فلما تملكت الحجة عليه بالغت فى المكر بهم ، واجتهدت فى هلاكهم ، وكان الرشيد يتبرك بمشورتها ، فقال : أشيرى على برأيك الموافق الرشيد ، فإنى خائف أن يخرج الأمر من يدى إنْ تمكنوا من خراسان وتغلبوا عليها .

فقالت : يا أمير المؤمنين مثلك مع البرامكة كمثل رجل سكران غريق فى بحر عميق ، فإن كنت قد أفقت من سكرتك وتخلصت من غرقتك أخبرتك بما هوأصعب عليك وأعظم من هذا بكثير ، وإن كنت على الحالة الأولى تركتك ، فقال لها : قد كان ما كان فقولى أسمع منك . فقالت : إن هذا الأمر أخفاه عنك وزيرك ، وهو أصعب مما أنت فيه وأقبح وأشنع ، فقال لها: ويحك وماهو ؟ فقالت: أنا أجل من أن أخاطبك به ولكن تحضر أرجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضربا ، فإنه يعرفك الخبر وكان الرشيد قد أحل جعفرا محلا لم يحله أخاه ولا أباه وأمره أن يدخل على الحريم فى السفر والحضر وأبرز إليه حواريه وأخواته وبناته ، لأنه كان بينهما رضاع سوى امرأته زبيدة ، فإنه لم يكن رآها ولا دخل عليها ولا قضى لها حاجة ولا هى أيضا تستقضيه حاجة ، فلما فسد قلب الرشيد وعزم على هلاك البرامكة ، وجدت سبيلا على البرامكة فحطت على جعفر ، وكان جعفر

يدخل الحريم فى غياب الرشيد ، ويقضى حوائجهن لأنهن لايستترن منه ، وكان ذلك بأمر الرشيد ولم يعلم الرشيد ماحدث من جعفر .

قال : فخرج الرشيد واستدعى بأرجوان الخادم وأحضر السيف والنطع، وقال: برئت من المنصور إنْ لم تصدقنى فى حديث جعفر لأقتلنك، فقال : الأمان يا أمير المؤمنين قال : نعم لك الأمان ، فقال : اعلم إن جعفراً قد خانك فى أختك ميمونة، وقد دخل بها منذ سبع سنين ، وولدت منه ثلاث بنين ، أحدهم له ست سنين ، والآخر له خمس سنين ، والثالث عاش سنتين ومات قريبا ، والاثنان قد أنفذهما إلى مدينه الرسول ﷺ ، وهى حامل بالرابع ، وأنت أذنت له بالدخول على أهل بيتك، وأمرتنى أن لا أمنعه فى أى وقت شاء ليلا أو نهارا ، قال : أمرتك أن لاتحجبه ، فحين حدثت هذه الحادثة لم لا أخبرتنى أول مرة ، ثم أمر بضرب عنقه ، وقام من وقته على الفور ودخل على زبيدة وقال لها : أرأيت ماعاملنى به جعفر ، وما ارتكب من هتك سترى ونكس رأسى ، وفضحنى بين العرب والعجم ، فقالت : هذه شهوتك وإرادتك عمدت إلى شاب جميل الوجه ، حسن الثياب طيب الرائحة جبار فى نفسه ، أدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله، وهى أحسن منه وجها ، وأنظف منه ثوبا ، وأطيب منه رائحة ، لكنها لم تر رجلا قط غيره ، فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب .

فخرج من عندها مكروبا فدعا بخادمه مسرور ، وكان قاسى القلب فظا غليظا ، قد نزع الله الرحمة من قلبه ، فقال : يا مسرور إذا كانت الليلة بعد العتمة فأتنى بعشرة من الفعلاء أجلاد ، ومعهم خادمان قال : نعم ،

فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلاء والخادمان ، فقام الرشيد وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التى فيها أخته فنظر إليها وهى حامل فلم يكلمها بشيء ولم يعاتبها على مافعلت وأمر الخادمين بإدخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها ، ووضعها بحليها وثيابها كما هى ، وقفل عليها ، وقد علمت أنها بعد قتل أرحوان لاحقه به ؛ فلما علم أنه استوثق بها ، دعا بالفعلاء ومعهم المعاول والزنابيل فحفروا وسط تلك المقصورة ، حتى بلغوا الماء ، وهو قاعد على كرسى ، ثم قال : حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه فى تلك الحفرة ، ثم قال : ردو التراب عليه ففعلوا وسووا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وقفل الباب وأخذ المفتاح معه ، وجلس فى موضعه والفعلاء والخادمان بين يديه ، ثم قال : يامسرور خذ هؤلاء القوم وأعطهم أجرتهم ، فأخذهم مسرور وجعلهم فى جواليق وخيط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم فى وسط الدجلة ، ورجع من وقته، فوقف بين يديه فقال : يا مسرور فعلت ما أمرتك به ؟ قال: وفيت القوم أجورهم ، فدفع إليه مفتاح البيت وقال احفظه حتى أسألك عنه ، وامض الآن فانصب فى وسط المحل القبة التركية ، ففعل ذلك ووافاة قبل الصبح ، ولم يعلم أحد ما يريد .

فلما جلس فى مجلسه وكان يوم الخميس يوم موكب جعفر ، قال : يا مسرور لاتتباعد عنى ، ودخل الناس فسلموا عليه ووقفوا على مراتبهم ، ودخل جعفر بن يحيى البرامكى فسلم عليه فرد عليه السلام أحسن رد ، ورحب به وضحك فى وجهه ، فجلس فى مرتبته وكانت مرتبته أقرب المراتب إلى أميرالمؤمنين ، ثم حدثه ساعة وضاحكه ؛ فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحى ، فقرأها عليه وأمر ونهى ، ومنع ونفذ

الأمور ، وقضى حوائج الناس ؛ ثم استأذنه جعفر فى الخروج إلى خراسان فى يومه ذلك ، فدعا الرشيد بالمنجم وهو جالس بحضرته ، فقال الرشيد : كم مضى من النهار ؟ قال : ثلاث ساعات ونصف ، وأخذ له الارتفاع وحسب له الرشيد بنفسه ، ونظر فى نجمه ، فقال : يا أخى هذا يوم نحوسك ، وهذه ساعة نحس ولا أرى إلا أنه يحدث فيها حدث ولكن تصلى الجمعة وترحل فى سعودك ، وتبيت فى النهراوان ، وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق بالنهار ، فإنه أصلح من اليوم . فما رضى جعفر بما قاله الرشيد ، حتى أخذ الاصطرلاب[1] من يد المنجم ، وقام وأخذ الطالع وحسب الطالع لنفسه ، وقال : والله صدقت يا أمير المؤمنين إن هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجما أشد احتراقا ، ولا أضيق مجرى من البروج فى مثل هذا اليوم ، ثم قام وانصرف إلى منزله والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه ويبجلونه إلى أن وصل إلى قصره فى جيش عظيم وأمر ونهى وانصرف الناس؛ فلم يستقر به المجلس حتى بعث إليه الرشيد مسرورا ، وقال له : امض إلى جعفر وائتنى به الساعة ، وقل له : وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب الأول أوقف الجند ، وإذا دخل الباب الثانى أوقف الغلمان ، وإذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحد يدخل معه من غلمانه بل يدخله وحده، فإذا دخل فى صحن الدار فمل به إلى القبة التركية التى أمرتك بنصبها فاضرب عنقه ، وائتنى برأسه ولا توقف أحدا من خلق الله على ما أمرتك به ، ولا تراجعنى فى أمره ، وإن لم تفعل أمرت من يضرب عنقك ويأتينى برأسك ورأسه حملة ، وفى دون هذا كفاية ، وأنت أعلم ، وتبادر قبل أن يبلغه الخبر من غيرك .

---

(١) الإصطرلاب : هو ميزان الشمس وهى كلمة يونانية .

فمضى مسرور ، واستأذن على جعفر فدخل عليه وقد نزع ثيابه وطرح نفسه ليستريح ، فقال : سيدى أجب أمير المؤمنين ، قال : فانزعج وارتاع منه ، وقال : ويلك يا مسرور أنا فى هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر ؟ قال : وردت كتب من خراسان يحتاج أن تقرأها ؛ فطابت نفسه ودعا بثيابه فلبسها وتقلد بسيفه وذهب معه .

فلما دخل من الباب الأول أوقف الجند ، وفى الثانى أوقف الغلمان ، فلما دخل من الثالث إلتفت فلم ير أحدا من غلمانه ولا الخادم الفرد ؛ فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع ، فلما صار بإزاء تلك القبة المضروبة فى صحن الدار مال به إليها ، وأنزله عن دابته ، وأدخله القبة فلم ير فيها أحدا ، وفى رواية رأى فيها سيفا ونطعا فحس بالبلاء ، وقال لمسرور: يا أخى ما الخبر ؟ فقال له مسرور : أنا الساعة أخوك ، وفى منزلك تقول لى : ويلك ، أتدرى ما القضية وما كان الله ليهملك ولا ليغفلك ، فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك ، وحمل رأسك إليه الساعة ؛ فبكى جعفر وجعل يقبل يدى مسرور ورجليه ، ويقول : يا أخى يامسرور قد علمت كرامتى لك دون جميع الغلمان والحاشية ، وإن حوائجك عندى مقضية فى سائر الأوقات ، وأنت تعرف موضعى ومحلى من أمير المؤمنين ، وما يوحيه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكون بلغوه عنى باطلا ، وهذه مائة ألف دينار منى لك أحضرها لك الساعة ، قبل أن أقوم من موضعى هذا ، وخلنى أهيم على وجهى ، فقال : لاسبيل إلى ذلك أبدا، قال : فاحملنى إليه وأوقفنى بين يديه ، فلعله إذا وقع نظره على تدركه الرحمة ، فيصفح عنى ، قال : مالى سبيل إلى ذلك أبدا ، ولا يمكننى مراجعته، وقد علمت أنه لا سبيل إلى الحياة أبدا ، قال : فتوقف عنى ساعة

وارجع إليه ، وقل له: قد فرغت مما أمرتنى به واسمع مايقول ، وعد فافعل ماتريد فإن فعلت ذلك وحصلت لى السلامة ، فإنى أشهد الله وملائكته إنى أشاطرك فى نعمتى مما ملكته يدى ، وأجعلك أمير الجيش وأملكك أمر الدنيا ، ولم يزل به وهو يبكى حتى طمع فى الحياة . قال له مسرور : إنما يكون ذلك وحل سيفه ومنطقته واخذهما ووكل به اربعين غلاما من السودان يحفظونه ؛ ومضى مسرور ووقف بين يدي الرشيد وهو جالس ، يقطر غضبا وفى يده القضيب الولع ينكت به فى الأرض .

فلما رآه قال له : ثكلتك أمك مافعلت فى أمر جعفر ، فقال : ياأمير المؤمنين قد أنفذت أمرك فيه ، فقال : فأين رأسه ، فقال: فى القبة ، قال: فأتنى برأسه الساعة فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة ، فلم يمهله أن يصلى الثانية حتى سل سيفه الذى أخذه منه وضرب عنقه ، وأخذ رأسه بلحيته فطرحه بين يدى أمير المؤمنين ، وهو يشخب[1] دما فتنفس الصعداء وبكى بكاء شديداً ، وجعل ينكت فى الأرض أثر كل كلمة ، ويقرع أسنانه بالقضيب ويخاطبه ويقول يا جعفر : ألم أحلك محل نفسى ، يا جعفر : ما كافأتنى ولاعرفت حقى ، ولا حفظت عهدى ، ولا ذكرت نعمتى ، ولا نظرت فى عواقب الأمور ، ولا تفكرت فى صروف الدهر ولا حسبت تقلب الأيام ، واختلاف أحوالها ، يا جعفر : خنتنى فى أهلى ، وفضحتنى بين العرب والعجم ، ياجعفر : أسأت إلىَّ وإلى نفسك ، وتفكرت فى عاقبة أمرك .

---

(١) يشخب : يسيل .

قال مسرور : وأنا واقف بين يديه وهو ينكت فى الأرض فى كل كلمة ، ولم يزل كذلك إلى أن أذن لصلاة الظهر ، فدعا بماء فتوضأ للصلاة وخرج للجامع فصلى بالناس جماعة ، ثم إلتفت بوجهه لقصور جعفر ودوره، وقبض على أبيه وأخيه وجميع أولاد البرامكة ومواليهم وغلمانهم واستباح مافيه ووجه مسرورا إلى المعسكر ، فأخذوا جميع مافيه من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك .

فلما أصبح يوم السبت فإذا هو قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان ، وترك من بقى منهم لايرجع إلى وطنه وشتت شملهم فى البلادولم يقدر أحد منهم على كسرة خبز ، وحبس أباه يحيى ، وأخاه الفضل فى مطمورة وأمر بحثت جعفر فصلبت على الجسر ببغداد، ثم بعث إلى خراسان أن يوطن بلادها ، وأمر الناس فردوا مضاربهم، ودخل المعسكر واستقرت له الأمور .

وأحضر على بن عيسى بن ماهان[1] فولاه خراسان ، فوجه إلى مدينة النبى ﷺ فأتى بالصبيين ولدى جعفر من أخته ميمونة فأدخلا عليه فى بيته فلما رآهما أعجب بهما وكانا فى نهاية من الحسن والجمال ، فاستنقطهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية وفى ألفاظهما عذوبة وبلاغة ،

---

(١) على بن عيسى بن مهان : من كبار القادة فى عصر الرشيد والأمين وهو الذى حرض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد ، وسيره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير ، ولاه إمارة الجبل وهمذان ، وأصبهان ، وقم ، وحارب جيش المأمون بقيادة طاهر بن حسين فى الرى فقتل ، وانهزم أصحابه ، ت [١٩٥هـ - ٨١٠م] . انظر : النجوم الزاهرة (١٤٩/٢) ، الكامل لابن الأثير (٧٩/٦) ، البداية والنهاية (٢٢٦/١٠) .

فقال لكبيرهما : ما اسمك ياقرة عينى ؟ قال : الحسن ، وقال للصغير : ما اسمك ياحبيبى ؟ قال : الحسين ، فنظر إليهما وبكى بكاء شديدا ، ثم قال: يعز على حسنكما وجمالكما لارحم الله من ظلمكما ، ولم يد يا ما يراد بهما ، ثم قال : يامسرور ما فعلت بالمفتاح الذى دفعته لك وأمرتك بحفظه ؟ قال : هو حاضر يا أمير المؤمنين ، قال : فإئتنى به ، ثم دعا بجماعة من الغلمان والخدم ، وأمرهم أن يحفروا فى البيت حفرة عميقة ، ودعا مسرورا وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما فى تلك الحفرة ، رحمهم الله تعالى جميعا ، وهو مع ذلك يبكى بكاء شديدا حتى ظننت أنه رحمهما، ثم مسح عينيه من الدموع، وأمر أن لا تذكر البرامكة فى مجلس، ولايستعان بمن بقى منهم فى المدينة أبدا ، فخرجوا على وجوههم فى البلاد شاردين متنكرين ، وقطع الله دابرهم .

[٩٢] قال : لما كان بعد مدة من هلاك البرامكة وجد الرشيد رقعة تحت مصلاه ، فيها خطاب وأبيات من الشعر فبحث عنها، فقيل: إن صاحب السر[١] عملها ، فبعث إليه فسأله عنها ، فقال : يا أمير المؤمنين وجدتها فى صحن الدار ولا أعلم من طرحها ، فأخذتها وطرحتها تحت مصلاتك .

فقيل :إن ذلك من زبيدة ، لتهلك من بقى من البرامكة ،فعملت الرقعة للرشيد وحركته وزادت فى غيظه،فاستدعى فى الوقت بالفضل بن يحيى[٢]،

---

(١) صاحب السر : أحد أعوانة الخليفة .

(٢) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى : وزير الرشيد ، وأخوه فى الرضاعة . سجنه الرشيد وعذبه إثر نكبة جعفر البرمكى ، ومات فى سجن الرشيد بالرقة [١٩٣هـ] .

وضربه سياطا حتى كاد أن يهلكه، وزاد فى حديده وأغلاله ، ثم استدعى بيحيى[1] وكان شيخا كبيرا وزاد فى حديده وأغلاله أيضا ، وكان قد نشأ فى النعيم ، فتذكر فقد جعفر وتشتت الأهل ، فكتب كتابا إلى الرشيد يستعطفه ، ويسأله أن يخفف عنه من القيد والغل ، وهو:"بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين ونسل المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، من عبد أسلمته ذنوبه ، وأوبقته عيوبه ، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه ، وخانه الزمان ، وأناخ عليه الخذلان ، ونزل به الحدثان ، فصار إلى الضيق بعد السعة ، وعالج الموت بعد الدعة[2] ، وشرب كأس الموت مترعة[3] ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهر بعد الكرى ، فنهاره فكر ونومه سهر وساعة شهر وليله دهر ، قد عاين الموت مرارا وشارف الهلاك جهارا ؛ يا أمير المؤمنين قد أصابتنى مصيبتا الحال والمال ، أما المال : فإن ذلك منك ولك ، وكان فى يدى

---

(١) يحيى بن خالد بن برمك ، أبو الفضل : الوزير السرى الجواد ، سيد بنى برمك وأفضلهم ، وهو مؤدب الرشيد ومعلمهم ، رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل . أمره المهدى [١٦٣هـ] أن يلازم بعد أن بلغ من عمره أربعة عشر عاما ويكون كاتبا له . ولما ولى هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى وقلده أمره ، فبدأ يعلو شأنه . واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه إلى أن مات . ت [١٩٠هـ = ٨٠٥م] . انظر : وفات الأعيان (٢/٢٤٣) .

(٢) الدعة : الرغد فى العيش .

(٣) مترعة : مملوءة ، وهى كناية عن شدة مايلاقى من العذاب .

عارية[1] منك ولابأس برد العوارى إلى أهلها . وأما المصيبة : بجعفر فبجرمه وجراءته ، وعاقبته بما استخف من أمرك وكان جزاؤه فوق ما استحق . وأما الفقير : فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتى وارحم ضعفى ووهن قوتى وهب لى رضاك ، فمِنْ مثلى الزلل ومِنْ مثلك الإقالة[2] ، ولست أعتذر ولكن أقر وقد رجوت أن أفوز برضاك ، فتقبل عذرى ، وصدق نيتى وظاهر طاعتى وتلويح حجتى ، ففى ذلك مايكتفى به أمير المؤمنين ويرى الحقيقة فيه ويبلغ المراد منه ، ثم أنشأ يقول :

قل للخليفة ذى الصنا ... ئع والعطايا الفاشيه[3]
وابن الخلائف من قري ... ش والملوك العاليه
رأس الأمور وخير من ... ساس الأمور الماضيه
إن البرامكة الذين ... رموا لديك بداهيه
عمتهم لك سخطة ... لم تبق منهم باقيه
فكأنهم مما بهم ... أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهم ... خلع المذلة باديه
مستضعفون ومطردون ... بكل أرض قاصيه
بعد الإمارة والوزا ... رة والأمور الساميه
ومنازل كانوا بها ... فوق المنازل عاليه
أضحوا وحل مُناهمو ... منك الرضا والعافيه

---

(١) العَارِية: ما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده إليك، وجمعها عوارى .

(٢) الإقالة : العفو والصفح .

(٣) الفاشية : العديدة المنتشرة .

يـا مـن يريـد لـي الـردى ... يكفيـك ويحـك مـا بيـه[1]

يكفيـك أنـي مستبـا ... ح عـترتي ونسـائيه[2]

يكفيـك مـا أبصرتـه ... ذلـي وذل مكانيـه

فلقـد رأيـت المـوت مـن ... قبـل الممـات علانيـه

وبكـاء فاطمـة الكبـيرة ... والدمـوع الجاريـه

ومقالهـا بتفجـع ... يـا سـوأتى وشـقائيه

مـن لـي وقـد غلـب الزمـا ... ن علـى جميـع رجاليـه

يـا لهـف نفسـي لهفهـا ... مـا للزمـان ومالـيه

أو مـا سـمعت مقـالتي ... يـاذا الفـروع الزاكيـه

ياعطفـة الملـك الرضـا ... عـودي علينـا ثانيـه

فلما وقف الرشيد على الرقعة ، كتب على ظهرها هذه الأبيات :

يـا آل برمـك إنكـم ... كنتـم ملوكـا عاتيـه

فعصيتمـو وطغيتمـو ... وكفرتمـو نعمائيـه

هـذى عقوبـة مـن عصـى ... مـن فوقـه وعصانيـه

أجـرى القضـاء عليكمـو ... مـا خنتمـوه علانيـه

مـن تـرك نصـح إمـامكم ... عنـد الأمـور الباديـه

ثم أردفه بقوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) الردى : الهلاك .

(٢) العترة : الذرية والعشيرة .

فلما قرأها يحيى وهو بالسجن ، أخذته الحمى لوقته وساعته وكان ينام على التراب وآيس من الحياة ، وعلم أنه ليس له مخلص مما هو فيه من السجن انتهى .

[٩٣] [وقيل] **ليحيى بن خالد بن برمك** : أيها الوزير أخبرنا بأحسن ما رأيت فى أيام سعادتك ؟ قال : ركبت يوما فى بعض الأيام فى سفينة أريد التنزه ، فلما خرجت برجلى لأصعد فاتكأت على لوح من ألواحها ، وكان بإصبعى خاتم فطار فصه من يدى ، وكان ياقوتا أحمر قيمته ألف مثقال من الذهب فتطيرت[1] من ذلك . ثم عدت إلى منزلى وإذا بالطباخ قد أتى بذلك الفص بعينه وقال أيها الوزير لقيت هذا الفص فى بطن حوت ؛ وذلك لأنى اشتريت حيتانا للمطبخ فشققت بطنها فرأيت هذا الفص ، فقلت : لايصح هذا إلا للوزير أعزه الله تعالى ، فقال : الحمد لله هذا بلوغ الغاية .

[٩٤] [وقيل] له أخبرنا ببعض ما لقيت من المحن ؟ قال : اشتهيت لحما فى قدر طباخ وأنا فى السجن فغرمت ألف دينار فى شهوتى ، حتى أتيت بقدر ولحم مقطع فى قصبة فارسية والخل وسائر حوائجها فى قصبة أخرى وتركوا عندى ما أحتاج إليه، وأتيت بنار فأوقدت تحت القدر ونفخت ولحيتى فى الأرض حتى كادت روحى تخرج . فلما أنضجت تركتها تفور وتغلى وفتت الخبز وعمدت لأنزلها فانفلقت وانكسرت القدر على الأرض فبقيت ألتقط اللحم ، وأمسح منه التراب وآكله وذهب المرق الذى كنت أشتهيه وهذا أعظم ما مربى انتهى .

---

(١) تطير : تشاءم

[٩٥] ثم [قيل] : إن الرشيد نذر الحج ، فخرج وخرج معه العسكر وكان خروجه فى رمضان ، فكانت تضرب له السرادقات المكللة بالديباج مفروشة بالحرير يخرج من سرادق إلى سرادق ، والناس محدقون به حتى وصل إلى الحرم وحج ؛ فاتفق أن الوفاة دنت من يحيى وهو فى السجن ، فكتب رقعة وأوصى ولده الفضل أن يوصلها إلى الرشيد ، وكتب فيها هذه الأبيات :

ستعلم فى الحساب إذا التقينا ... غدا يوم القيام من الظلوم
وينقطع التلذذ عن أناس ... من الدنيا وتنقطع الهموم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم[1]
تروم الخلد فى دار المنايا ... وكم قد رام غيرك ما تروم[2]
إلى ديان يوم الدين نمضى ... عند الله تحتمع الخصوم

قال : فلما قدم الرشيد أنفذها إليه الفضل ، فلما قرأها علم بموته ، فقال : مات والله يحيى ، ومات الجود والكرم والسخاء ، والله لو كان حيا لفرجت عنه ، ثم أمر بإطلاق الفضل ابنه واستوزره مكان أخيه جعفر رحمة الله عليهم أجمعين .

[٩٦] قال بعضهم فى البرامكة شعرا :

إن البرامكة الكرام تعلموا ... فعل الكرام فعلموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا ... لم يهدموا مما بنوه أساسا

---

(١) المنايا : الموت .

(٢) تروم : تريد .

وإذا همو صنعوا الصنائع فى الورى ... جعلوا لها طول البقاء لباسا
فعلام تسقينى وأنت سقيتنى ... من مر هجرك من جنابك كاسا
آنستنى متفضلا أفلا ترى ... أن انقطاعك يوحش الإيناسا

[٩٧] وسئل ، إسحاق الموصلى عن سخاء أولاد يحيى بن خالد ؟ فقال : أما الفضل ففعله يرضيك . وأما جعفر فقوله يرضيك . وأما محمد فيفعل ما يجد .وفى يحيى يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ... ولكننى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لابل وراثة ... توارثنى من والد بعد والد

وفى الفضل يقول القائل :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة ... رأيت بها عشب السماحة ينبت
فليس بسعال إذا سئل حاجة ... ولا بمكب فى ثرى الأرض ينكت[1]

وفى محمد يقول القائل :

سألت الندى والجود مالى أراكما ... تبدلتما عزا بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما ... فقالا أصبنا فى ابن يحيى محمد
فقلت فهلا متما بعد موته ... وقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالا أقمنا كى نعزى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

[٩٨] وذكر الحافظ السيوطى ـ نفعنا الله به ـ فى رسالته مشتهى العقول فى منتهى النقول : أن منتهى الكرم للوزراء البرامكة كاد أن لا

---

(١) السعال ، عند سؤال الحاجة : كناية عن الإعراض والصدود .

يوجد أحد من العلماء والحكماء والعظماء والندماء إلا وللبرامكة عليه كرم نما كماء السماء .

وتكرم جعفر بخمسين ألف دينار من الذهب وتكرر منه كثيرا فى ولايته كلها من غير مَنّ ولا أذى ولا لغرض ولا لمرض حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر بقولهم تبرمك فلان .

ومن كرم جعفر إنه تكرم فى يوم على ألف شاعر أعطى كل شاعر ألف درهم والدرهم ثلاثة أنصاف فضة ، ومن كرمه أنه تكرم على من هجاه بخمسة آلاف دينار وعفا عن تأديبه وتعذيبه .

[٩٩] [قيل] : أوقع بهم من الأمر ما أوقع الرشيد صار أمرهم إلى ما سيوصف من الفقر والذل والإهانة ، فمن ذلك : ما قاله محمد بن غسان صاحب ولاية الكوفة وقاضيها ، قال : دخلت على أمى فى يوم عيد أضحى فرأيت عندها عجوز فى أطمار[1] رثة وإذا لها بيان ولسان ، فقلت لأمى : من هذه ؟ قالت : هذه خالتك عتابة[2] أم جعفر البرمكى ابن يحيى فسلمت عليها ، وقلت لها : أصار بك الدهر إلى ما أرى ! قالت : نعم يا بنى إن الذى كنا فيه كان عارية ارتجعها الدهر منا .

---

(١) أطمار : الثوب البالى .

(٢) عتابة ، وقيل : فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة : سيدة جليلة ذات نفوذ وسلطان ، واحترام لدى الراعى والرعية ، كان الرشيد يشاورها مظهرا لإكرامها والتبرك برأيها . انظر : أعلام النساء (١/١٩٦) .

قال : فقلت : حدثيني ببعض شأنك ، قالت : خذه جملة لقد مضى عليَّ عيد أضحى مثل هذا منذ ثلاث سنين ، وعلى رأسي أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أن ابني عاق لي ، وقد جئتكم اليوم أطلب جلدي شاة ، أجعل أحدهما شعارا والآخر دثارا . قال : فغمني ذلك وأبكاني فوهبت لها بعض دنانير كانت عندي ، والله أعلم .

[١٠٠] **ومن قول يحيى بن خالد لابنه جعفر** : يا بني مادام قلمك يرعف[1] فأمطره معروفا .

[١٠١] **ومن كلام جعفر** : إذا أحببت إنسانا من غير سبب فارج خيرا ، وإذا أبغضت إنسانا من غير سبب فتوق شرا .

[١٠٢] **وقال يحيى بن سلام الأبرش** ، قال : حدثني أبي قال : خرج الرشيد للصيد يوما بعدما أباد البرامكة فاحتاز بجدار خراب من جدران بني برمك فرأى لوحا مكتوبا عليه هذه الأبيات :

يا منزل لعب الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى ... كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفزع من رآك وطالما ... كنا إليك من المخاوف نفزع
ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقي الذين حياتهم لا تنفع

قال : فبكى الرشيد ، وأقبل على الأصمعي وقال : أتعرف شيئاً من أخبار البرامكة تحدثني به ؟ فقال الأصمعي : ولي الأمان ، قال ولك الأمان.

---

(١) رعف القلم : كثر مداده .

فقال : أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى ؛ وذلك أنه خرج يوما للصيد والقنص وهو في موكبه إذ رأى أعرابيا على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض في سيره ، قال : هذا يقصدني ، فقلت : ومن أعلمك ؟ قال : لا يكلمه أحد غيري . فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير والحم الغفير، وسمع الغوغاء والضجة ظن أنه أمير المؤمنين فنزل وعقل راحته وتقدم وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : اخفض عليك ما تقول ، فقال: السلام عليك أيها الأمير ، قال : الآن قاربت احلس فجلس الأعرابي فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب ؟ قال : من قضاعة ، قال : من أدناها أم من أقصاها ؟ قال : من أقصاها ، قال الأصمعي : فالتفت إلى الفضل ، وقال : كم من العراق إلى أرض قضاعة ؟ فقلت : ثمانمائة فرسخ، فقال : يا أخا العرب مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق إلا لشيء ، قال : قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد . قال : من هم ؟ قال : البرامكة ، قال الفضل : يا أخا العرب البرامكة خلق كثير وفيهم جليل وخطير ؛ ولكل منهم خاصة وعامة ، فهلا أفردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته لحاجتك ؟ قال : أجل ، قال : أطولهم باعا وأسمحهم كفا ، قال : من هو؟ قال : الفضل بن يحيى بن خالد ، فقال الفضل: يا أخا العرب إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر إذا جلس للناس مجلسا عاما لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والناظرون للعلم ، أعالم أنت؟ قال : لا ، قال : أفأديب أنت ؟ قال : لا ، قال : أفعارف أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال : لا ،

قال : هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة ؟ قال : لا ، فقال: يا أخا العرب غرتك نفسك ؛ مثلك يقصد الفضل بن يحيى ، وهو كما عرفتك عنه من الجلالة ، بأى ذريعة أو وسيلة تقدم عليه ؟ قال : والله يا أمير ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف ، وبيتين من الشعر قلتهما فيه ، فقال الفضل : يا أخا العرب أنشدنى البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلقائه ، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيء من مالى ، ورجعت إلى باديتك وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً ، قال : أتفعل أيها الأمير ؟ قال : فإنى أقول :

ألم تر أن الجود من عهد آدم ... تحدر حتى صار يمتصه الفضل
ولو أن أما مسها جوع طفلها ... غذته باسم الفضل لاغتذى الطفل

قال : أحسنت يا أخا العرب فإن قال : لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر وأخذ الجائزة عليهما فأنشدنى غيرهما فمّا تقول ؟ قال . أقول :

قد كان آدم حين حان وفاته ... أوصاك وهو يجود بالحوباء[1]
ببنيه أن ترعاهما فرعيتهم ... وكفيت آدم عيلة الأبناء

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل ممتحنا : هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس ، فأنشدنى غيرهما ما تقول ؟ وقد رمقتك الأدباء بالأبصار وامتدت الأعناق إليك وتحتاج أن تناضل عن نفسك ؟ قال إذن أقول :

---

(١) الحَوْباء : النفس . قيل هى مأخوذة من الحوبة بمعنى الحاجة لكون النفس موطنا للحاجات ، الجمع حَوْباوات.

ملت جهابذ فضل وزن نائله ومل كاتبه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة خلق ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك هذان : البيتان أيضا أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلا ؟ قال ، أقول :

وللفضل صولات على مال نفسه يرى المال منه بالمذلة والعنا
ولو أن رب المال أبصر ماله لصلى على مال الأمير وأذنا

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أنشدنى غيرهما ما تقول إذن ؟ قال : أقول :

ولو قيل للمعروف نادى أخا العلا لنادى بأعلى الصوت يا فضل يافضل
ولو أنفقت جدواك من رمل عالج لأصبح من جدواك قد نفد الرمل[1]

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أيضا أنشدنى غيرهما ما تقول ؟ قال : أقول :

وما الناس إلا اثنان صب وبازل وإنى لذاك الصب والباذل الفضل
على أن لى مثلا كما ذكر الورى وليس لفضل فى سماحته مثل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدنى غيرهما ما تقول؟ قال : أقول أيها الأمير :

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد فقامت به التقوى وقام به العدل

---

(١) تعلج الرمل : تجمع .

وقـام بـه المعـروف شـرقا ومغربـا ولـم يـك للمعـروف بعـد ولاقبل

قال أحسنت : يا أخـا العـرب فـإن قـال : لقـد ضحرنـا مـن الفـاضل والمفضول. أنشدنى بيتين على الكنية لاعلى الاسـم مـا تقـول ؟ قـال : إذن أقول:

ألا يا أبا العبـاس يـا واحـد الـورى ويـاملكـا خـد الملـوك لـه نعـل
إليـك تسيـر النـاس شـرقا ومغربا فـرادى وأزواجـا كـأنهم نحـل

قال : أحسنت يا أخا العـرب ، فـإن قـال لـك الفضـل : أنشـدنا غـير الاسم والكنية والقافية ، قال : والله لئن زادنى الفضـل وامتحننى بعـد هـذا لأقولن أربعة أبيات ماسبقنى إليها عربى ولا أعجمى ، ولئـن زادنـى بعدهـا لأجمعن قوائم ناقتى هذه وأجعلها فى حـر أم الفضـل وأرجعـن إلـى قضاعـة حاسرا ولا أبالى ، فنكس الفضل رأسه ، وقـال للأعرابـى : يـا أخـا العـرب أسمعنى الأبيات الأربعة ، قال أقول :

ولائمة لامتك يـا فضـل فـى النـدى فقلت لها هل يقـدح اللـوم فـى البحـر
أتنهيـن فضـلا عـن عطايـاه للغنـى فمن ذا الذى ينهى السحاب عن القطر
كـأن نـوال الفضـل فـى كـل بلـدة تحـدر هـذا المـزن فـى مهمـه قفـر[1]
كـأن وفـود النـاس فـى كل وجهة إلـى الفضـل لاقـوا عنـده ليلة القدر

قال : فأمسك الفضل على فيه وسقط على وجهه ضاحكـا ، ثـم رفـع رأسه وقال : يا أخا العرب أنا والله الفضل بن يحيى ، سل ماشئت ، فقـال: سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو ؟ قـال : نعـم ، قـال لـه : فـأقلنى ، قـال :

---

(١) المزن : المطر. القَفْر : الأرض الخلاء لا ماء فيها ولاكلأ

أقالك الله ، اذكر حاجتك . قال : عشرة آلاف درهم ، قال الفضل : ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب ، تُعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة آلاف وأمر بدفع المال ، فلما صار المال إليه حسده وزير الفضل وقال : يا مولاى هذا إسراف ، يأتيك حلف[1] من أحلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب فتجزيه بهذا المال ! فقال : استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاعة ، قال الوزير : أقسمت عليك يا مولاى إلا أخذت سهما من كنانتك وركبته فى كبد قوسك و أومأت به إلى الأعرابى فإن رد عن نفسه ببيت من الشعر ، وإلا استعطفت مالك ويكون له فى بعضه كفاية فأخذ الفضل سهما وركبه فى كبد قوسه و أومأ به إلى الأعرابى ، وقال : رد سهمى ببيت من الشعر فأنشأ يقول :

لقوسك قوس الجود والوتر والندى ... وسهمك سهم العز فارم به فقرى

قال فضحك الفضل وأنشأ يقول

إذا ملكت كفى منالا ولم أنل ... فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله إخلاف الذى قد بذلته ... فلا مسعدى بخلى ولامتلفى بذلى
أرونى بخيلا نال مجدا ببخله ... وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره : أعط الأعرابى مائة ألف درهم لقصده وشعره؛ ومائة ألف درهم ليكفينا شر قوائم ناقته ، فأخذ الأعرابى المال وانصرف وهو يبكى ، فقال له الفضل : مم بكاؤك يا أعرابى استقلالا بالمال الذى

---

(١) الحلف : الغليظ الحافى .

أعطيناك ؟ قال : لا ولكنى أبكى على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض ، وتذكرت قول الشاعر :

لعمرك ما الرزية فَقْدُ مال ... ولافرس يموت ولابعير[1]

ولكن الرزية فَقْد حر ... يموت لموته خلق كثير

وتوجه الأعرابى بالمال مسرورا رحمة الله عليهم أجمعين

[١٠٣] **ويحكى** : أن الرشيد قال لأبى نواس : بعنى ذقنك ، قال : بكم؟ قال: بألف دينار ، قال : بعتك ، فقال الرشيد لخازن داره : ادفع له ألف دينار فدفعها فأخذها وربطها ، وقال : يا أمير المؤمنين خذ ما اشتريت، قال : لا، ولكن جعلتها وديعة عندك ، قال : فمضى أبو نواس واشتغل بأمره ولهوه وهو خائف على ذقنه من أمير المؤمنين ، قال : فبينما هو متفكر فى شىء يفعله إذ جاء قاصد أمير المؤمنين فلم يقدر أن يتكلم دون أن قام معه ودخل إلى دار الخلافة فوجده فى جمع كثير من خواص المملكة وأعوان الدولة ، وكان من شأنه أن يجلس بالقرب من أمير المؤمنين ، فتحادثوا وتماجنوا فضرط أبو نواس ضرطة مزعجة أزعجت الحاضرين ، فضحكوا جميعا وضحك أمير المؤمنين ، وقال له : فى ذقنك يا معرص[2] ، فقال له فى الحال : الله أعلم هى ذقن من . فقال أمير المؤمنين : قد وهبتها لك يا ملعون ، فأخذها وانصرف وكسب الألف دينار بهذه الحيلة ، والله أعلم انتهى .

---

(١) الرَزِيَّة ، مفرد رزايا : المصيبة العظيمة .

(٢) عَرَصَ الرجل : اضطرب .

[١٠٤] و[قيل] : كان نصر بن مقبل عاملا على الرقة[1] ، فأتى برجل من الظرفاء وجده ينكح شاة ، فقال : ماحملك على هذا ؟ فقال : أيها الأمير إنها والله ملك يمينى وقد قال الله تعالى ﴿أو ملكت أيمانكم﴾ [النساء: ٣] فأطلقه وأمر أن تضرب الشاة الحد ، فإن ماتت تصلب . قالوا : أيها الأمير إنها بهيمة ، قال : وإن كانت بهيمة ، فإن الحدود لا تعطل ، وإن عطلتها فبئس الوالى أنا . فانتهى إلى الرشيد خبره -ولم يكن رآه قبل- فدعا به .

فلما حضر بين يديه قال : من أنت ؟ قال : مولى الكلب ، فضحك منه ، ثم قال : كيف بصرك بالحكم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين البهائم عندى والناس سواء ، ولو وجب حد على بهيمة وكانت أمى أو أختى لحديتهما ، ولم تأخذنى فى الله لومة لائم ، فأمر الرشيد أن لا يستعان به على عمل فلم يزل معطلا إلى أن مات والله أعلم.

[١٠٥] ويحكى : أن هارون الرشيد أمر بقتل أبى نواس ، فقال : أتقتلنى شهوة لقتلى ؟ فقال : لا بل أنت مستحق للقتل ، قال : فبم استحقيت القتل ؟ قال ، بقولك:

ألا فاسقنى خمرا وقل هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

فقال : يا أمير المؤمنين أفتعلم أنه سقانى وشربت ؟ فقال له أمير المؤمنين : أظن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين أفتقتلنى على الظن وقد قال

---

(١) الرقة : مدينة فى شمال سوريا على الفرات ، أسسها السلوقيون . جعلها هارون الرشيد عاصمته الصيفية وبنى فيها قصر السلام ، فعرفت بمدينة الرشيد . دمرتها غزوات المغول .

الله تعالى ﴿إن بعض الظن إثم﴾ [الحجرات: ١٢] .فقال له الرشيد : قد قلت أيضا ماتستحق به القتل ، فقال : وماهو ؟ فقال له : قولك :

ماجاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أو في نار

فقال : يا أمير المؤمنين هل جاءنا أحد ؟ قال : لا ، قال : أتقتلني على الصدق؟ فقال له الرشيد : أولست القائل :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

فقال له : يا أمير المؤمنين أو صار القول فعلا ؟ قال لا أعلم ، قال : أفتقتلني على مالم تعلم . فقال له أمير المؤمنين : دع هذا كله فقد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بانزنا ، قال أبو نواس : قد علم الله هذا قبل علم أمير المؤمنين بقوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون﴾ [الشعراء: ٢٢٤] فقال الرشيد : خلوا عنه؛ ومن هذا أخذ الصفى الحلى فقال :

نحن الذى جاء الكتاب مخبرا بعفاف أنفسنا وفسق الألسن

[١٠٦] وعن محمد بن نافع قال : رأيت أبا نواس في النوم بعد موته، فقلت :يا أبا نواس ، فقال : لات حين كنية ، فقلت : الحسن بن هانئ قال: نعم ، قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بأبيات قلتها في علتى قبل موتى هى تحت الوسادة .

فسألت أهله فقلت : هل قال أخى شعرا ؟ قالوا : لا نعلم إلا أنه دعا بدواة وقرطاس ، وكتب شيئاً لاندرى ماهو ، فدخلت ورفعت وسادة ، وإذا أنا برقعة مكتوب فيها :

يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلامحسن ... فمن الذى يدعو ويرجو المجرمُ
مالى إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم إنى مسلمُ

وهذه حكاية العجمى والكردى وماجرى بينهما على يد القاضى بسبب الجراب

[١٠٧] **قيل** : إن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة ، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكى ، فلما حضر عنده قال له : ياجعفر إنى قلقت وضاق صدرى وأريد منك شيئا يشرح خاطرى ، فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين إن لى صديقا اسمه على العجمى، وعنده من جميع الحكايات والأخبار ؛ فقال : علىَّ به ، فقال سمعا وطاعة ، ثم إن جعفرا خرج من عند الخليفة فى طلب على العجمى فأرسل خلفه ؛ فلما حضر قال : أجب أمير المؤمنين، قال : سمعا وطاعة ، فأتى الخليفة فسلم وترحم ، فقال له: اجلس فجلس ، فقال له الخليفة : اسمع يا على إننى الليلة ضيق الصدر وقد سمعت عنك أن فى ذهنك حكايات وأخبارا وأريد منك أن تسمعنى مايزيل همى وفكرى، فقال : يا أمير المؤمنين تريد أن أحكى لك شيئاً سمعته ، أو رأيته ؟ فقال : إن كنت رأيت شيئاً فاحكه . فقال : سمعا وطاعة .

اعلم يا أمير المؤمنين : أنى سافرت فى بعض السنين من بلدى إلى هذه المدينة وهى بغداد وصحبنى غلام ظريف ومعه جراب نظيف ، فأودعنى إياه فبينما أنا أبيع وأشترى ، وإذا أنا برجل كردى ظالم معتد هجم علىَّ وأخذ الجراب منى ، وقال : هذا الجراب جرابى وكل مافيه قماشى

وثيابى ، فقلت: يامعشر الناس قد اعترانى الوسواس ، فقال الناس جميعا : امضوا إلى القاضى وأنا بحكمه راضى ، فدخلنا عليه وتمثلنا بين يديه .

فقال القاضى : فى أى شيء جئتما ؟ فقال الكردى : نحن خصمان، قال : أيكما المدعى ؟ فتقدم الكردى ، وقال : أيد الله مولانا القاضى هذا الحراب حرابى وكل مافيه قماشى وثيابى ، وقد ضاع منى ووجدته مع هذا الرجل . فقال القاضى : ومتى ضاع منك ؟ فقال الكردى : ضاع منى بالأمس ، فقال القاضى : إن كنت عرفته فصف لى مافيه ؟ فقال الكردى : إن فى حرابى هذا مرودين من لجين، وأكحلا للعينين ، ومنديلا لليدين ، ومشربتين مذهبتين ، وشمعدانين ، ومكبتين، وطبقين ، وإبريقين ، وصينية ، وطشتين ، وقدرة ، ودستين ، ومغرفة وملعقتين، ومسلة ، ومقلمة ، وملبتين وقعبا ، وقصعتين ، ومخدة ، ونطعين ، وحبة ، وفروتين، وبقرة ، وعجلتين ، وعنزا ، وشاتين ، ونعجة وخروفين ، وقطين أبلقين ، وحملا، وناقتين ، وبقرة ، وثورين ، ولبوة وسبعين ، ودبة وثعلبين ، ومرتبة وسريرين ، وطبقة وقاعتين ، ورواقا ومقعدين ، ومطبخا ببابين ، وجماعة ، أكراد يشهدون أن الحراب حرابى .

فقال القاضى : فما تقول أنت يا على ؟ فتقدمت يا أمير المؤمنين وقد بهتنى كلامه ، فقلت : أعز الله مولانا القاضى ؛ أنا ما فى حرابى إلا دويرة خراب ، وأخرى بلا باب ، ومقصورة للكلاب ، وفيه للصبيان كتاب وشباب يلعبون بالكعاب ، وفيه عساكر وأطناب ، ومدينة بصرى وبغداد ، وقصر كنعان بن شداد ، وكور وحداد ، وشبكة وصياد ، وعصا وأوتاد ، وبنات وأولاد ، وألف قواد يشهدون أن الحراب حرابى .

فلما سمع الكردى هـذا الكلام بكى وانتحب ، وقال : يا سيدى القاضى جرابى هذا معروف وكل مافيه موصوف فى جرابى هذا حصون ، وقلاع ، وقرى ، وضياع ، وطابق للصراع ، ووحوش وضباع ، ورجال يلعبون الطابة والرقاع، وإن فى جرابى هـذا حجرة ومهرين ، وفحلا وحصانين ، ورمحين طويلين ، وسبعة وأرنبين، وسكينا وخنجرين ، وبحرا وخليجين ، وكمرا وخوختين ، وعشارى ومركبين ، وصارى وقريتين ، وكورا ودكانين ، ومنقلة ونردين ، وعجوزا وقحبتين، وقوادا وشاطرين ، ومختثا وعلقين ، وأعمى وبصيرين ، وأعرج ومكسحين ، وعياراً وأزعرين، وجامعا ومدرستين ، وديرا وكنيستين ، وقسيا وشماسين ، وبتركا وراهبين، وقاضيا وشاهدين يشهدون أن الجراب جرابى .

فقال القاضى : ما تقول أنت يا على ؟ فبادرت يا أمير المؤمنين ، وقد امتلأت غيظا وزدت فى الحمق ، وقلت: أيد الله مولانا القاضى إن فى جرابى هذا زرد خانات صفاح ، وخزائن سلاح ، وألف كبش نطاح فى عشرين مراح ، وأربعين كلبا نباح ، وبساتين وكروم عنب وتين وتفاح ، وصورا وأشباح ، وقنانى وأقداح ، وعرائس ملاح ، ومغانى وأفراح، وهرجا وصياح ، وعبدا وفلاح ، وأخاه نجاح ، ورفيقه صباح ، ومعهم سيوف ورماح ، وقسى ونشاب ، وأصدقاء وأحباب ، وخلان وأصحاب ، ومجلس للعتاب وندمان للشراب ، وطنبور مع رباب ، ونايات وقنانى مصفوفات ، وصبيان ودايات، وأخوات معلمات ، وبنات محليات ، وجوارى مغنيات ، وجوارى حبشيات ، وثلاثة هنديات ، وأربعة بدويات ، وخمسة روميات ، وستة تركيات ، وسبعة عجميات، وثمانية قفجيات ، وتسعة كرجيات ، وعشر كلبات ، والدجلة والفرات ، وشبكة وصياد ،

وقداحة وزناد ، وإرم ذات العماد ، وألف جواد ، وقصر شداد بن عاد وخانات مع حمامات ، وقدوم ونحار وخشبة مع مسمار ، وتاجر مع عطار، وبزار مع بيطار ، وعبد أسود بمزمار ، ومقدم وركبدار ، ومدن وأمصار ، ومائه ألف دينار، وبواب وكستدار ورأس نوبة ، وعلم دار والكوفة مع الأنبار ، وعشرين صندوقا ملآنة قماشا ، ودكان نحاس وحاصل معاش ، وبرجان للحمام ، وغزة وعسقلان، ومن دمياط إلى أسوان، وإيوان كسرى، وملك سليمان ، ومن كوش نعمان إلى أرض خراسان ، وبلخ وأصبهان ، ومن الهند إلى بلاد السودان ، وفيه أطال الله عمر مولانا القاضي : قماش وغلائل ، وعراضي وموسى بحد ماضي يحلق ذقن مولانا القاضي إن حكم إن الحراب ماهو جرابي .

فعند ذلك يا أمير المؤمنين حار القاضي مما سمع ثم قال : ما أراكما إلا شخصين نحسين تلعبان بالقضاة والحكام ؛ لأن ماوصف الواصفون ولاسمع السامعون ماوصفتما في هذا الحراب ، ماهذا إلا بحر ليس له قرار، ثم أمر القاضي بفتح الحراب ففتحه الكردي فإذا فيه خبز وليمون وجبن وزيتون ، ثم إني رميت الحراب أمام القاضي والكردي ومضيت إلى حال سبيلي .

فلما سمع أمير المؤمنين ذلك ضحك حتى استلقى على قفاه ، وقد زال همه وغمه وأحسن جائزة على العجمي وانصرف والله أعلم .